الإسهامات الثقافية والكتابات التاريخية لعلماء الجزائر العثمانية
أبو راس الناصري أنموذجا

أ.بكاري عبد القادر، جامعة تيارت

مقدمة:

كان للعلماء الجزائريين دورا كبيرا في الحياة الفكرية والثقافية خلال العهد العثماني، شأنهم في ذلك شأن أمثالهم من العلماء العاملين في كل العصور، حيث كانوا يباشرون بأنفسهم تقديم النفوس والرؤوس، كما يباشرون تعليم العلوم والدروس.

ولو ذهبنا نعدد درجات مشاركتهم في مختلف مجالات الحياة، والآثار التي ترتبت على ذلك، لطال بنا المقام عن التعبير عن الفوائد العلميةالتربوية، والدروس الخبرية، و المعاني التاريخية التي لطالما قدموها. ولكن التساؤل الذي يطرح كثيرا ودائما في المعادلة التاريخية الثابتة، كلما دار الحديث عن الحياة الثقافية والفكرية بالجزائر خلال الفترة العثمانية، وخاصة أواخر عهدها، هو أن الحياة الثقافية تزدهر بظهور العدد الكبير من العلماء والمفكرين البارزين في مختلف العلوم والآداب وميادين المعرفة الأخرى، وهذا ما ينطبق على العصر العباسي مثلا، الذي إزدهرت فيه الحياة العلمية والفكرية إزدهارا كبيرا، وبلغ فيه العلماء شأنا عظيما ومستوا رفيعا، ولكن هذا الحال لاينطبق على الحياة الثقافية في الجزائرخلا ل الفترة العثمانية.

وعليه من غير الممكن أن نحكم على شعب ما، أنه مثقف ثقافة متينة ذائعة الصيت، ذات مكانة وتأثير دون الإستناد على براهين قطعية، ودلائل محسوسة، توحي بثبوت تلك الثقافة. وقد يتم التعبير عن تلك البراهين والدلائل بكلمة المظاهر، لأنها أقرب دلالة وأنسب لفظة للموضوع. وتمثلت تلك المظاهر في دور العلماء ورجال الدين في تفعيل الحركة الثقافية، ومساهماتهم بإنتاجهم العلمي والأدبي في الكتابة التاريخية.[1]

1- مساهمة أبي راس الناصري في الحركة الثقافية:

إن الجزائر كانت لها ثقافة وحضارة منذ عهد سحيق، وأن أهلها كان لهم إتصال دائم بغيرهم في مشارق الأرض ومغاربها، و لم يكونوا منعزلين عن الأحداث التاريخية، والتيارات الحضارية

التي ألمت بغيرهم، ولا سيما بجيرانهم. ويخبرنا التاريخ بأن الجزائري مجبول على حب العلم، فقد قام بالرحلات في سبيل اقتنائه، كما إستقبل الداخلين من الأجانب بصدر رحب، وهذا الإتصال كان عنصرا حاسما في تطوير الحركة الثقافية، ومكنه من الوصول إلى مرتبة الشعوب المثقفة، مع تمسكه بشخصيته التي لم تعرف التغير ولا الذوبان.[2]

وفي هذا الصدد راودتنا جملة من التساؤلات أهمها:هل تنطبق مقولة"عصمة الدولة وأخطاء الرجال"على الدولة العثمانية وحكامها خلال فترة حكمهم بالجزائر؟ وإلى أي مدى ساهم رجال العلم والفكروخاصة الشيخ أبو راس الناصري في تنشيط الحركة الثقافية والكتابة التاريخية بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الهجري(النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر)، وهل أثمرت جهودهم الفكرية في تلك الفترة بالجزائر ؟

إن التعرف على أحداث تاريخ الجزائر الحديث، وتكوين فكرة صحيحة عن تلك الفترة، مرتبط برسم صورة واضحة للحياة الثقافية أثناء العهد العثماني عامة، وعصر أبي راس الناصري خاصة، لكون الجانب الثقافي في هذه الفترة كان له أثار حاسمة، وانعكاسات مباشرة على الأحداث السياسية والإدارية والاجتماعية.

ولمعرفة مدى مساهمة الشيخ أبي راس الناصري في تفعيل الحركة الثقافية والكتابة التاريخية بالجزائر عامة، وبالناحية الغربية من الوطن خاصة، تجدر الإشارة إلى التعريف بأبي راس الناصري أولا ثم إلقاء نظرة عن الأوضاع الثقافية في تلك الفترة لإبراز ملامح الحياة العلمية والثقافية، ومدى مساهمة بعض البايات في نشر العلم والثقافة بالوطن.

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل وكنيته بأبي الطاهر، كما يؤخذ ذلك من كلامه. ولد بقلعة بني راشد بمنطقة تقع بين جبل كرسوط وهونت جنوب مدينة معسكر عام 1150هـ/1737م[3].

تلقى أبوراس ثقافة علمية فقهية وأدبية واسعة، وكان ذاإطلاع واسع بالفقه والتاريخ بمختلف أطواره، وحتى وإن كانت ثقافته تقوم على المجهود الشخصي فإن لها نسبا، وهوأخذه عن شيوخه الذين كن لهم إحتراما كبيرا، وأفتخربكثرتهم، وأفرد لهم بابا خاصا في سيرته الذاتية"فتح

الإله" وخصهم بتأليف سماه"لب أفياخي في عدة أشياخي" عرض فيه أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم، والذين نفضوا قشب أوساخه شريعة وطريقة على حد قوله[4].

إنتقل أبوراس من المحلية الى العالمية، ومن حافظ منطقة الراشدية والجزائر، الى حافظ يعرفه العلماء والشيوخ في مغارب الدول العربية الإسلامية ومشارقها. فالتقى بعلماء أجلاء في كل من فاس وتونس والحرمين الشريفين والقاهرة خاصة الشيخ مرتضي الزبيدي والعلامة الشرقاوي الذين أجازوه، ولقبوه بالحافظ تارة، وبشيخ الإسلام تارة أخرى بعدما علموا أن العلم بين سحره ونحره[5].

تقلد عدة مناصب كالقضاء والفتوى والخطابة ولكن التدريس هو الذي طبع حياته ولمدة تزيد عن ست وثلاثين سنة بلا إنقطاع، رغم أنه كان يجمع بين التدريس وبين التاليف في هذه المرحلة، فقد شجعه شيوخه واعتنوابه ، بل وتنافسوا عليه للتدريس، خاصة الشيخ عبد القادرالمشرفي الذي قال للباي:"إنما إخترته على من هو أكبرمنه من تلامذتي لأنه فيه النفع والقريحة"[6].

توفي يوم الاربعاء 15 شعبان سنة 1238هـ/28 ابريل1823 عن عمر يناهز التسعين سنة، دفن بضاحية باب علي وسط مدينة معسكر أين يوجد ضريحه الى يومنا هذا. يرجح أنه توفي بمرض الطاعون الذي ضرب المنطقة في ذلك الوقت، حيث يذكرصاحب كتاب أنيس الغريب والمسافرقوله: "مات حافظ العصر أبوراس الناصري الراشدي المعسكري بوباء الطاعون"[7].

في هذا المجال، لا أود أن أتناول موقف الأتراك من الثقافة والعلم، لكن أود فقط الحديث عن الثقافة من حيث مفهومها العام، والذي يرمي إلى جميع ما يتناوله الفكر البشري في كل عصر، ومفهومها الخاص من حيث سأخصص حديثي لنوع من أنواع الثقافة(الحركة العلمية والأدبية) خلال عصر أبي راس الناصري في الجزائر.

فالثقافة هي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، كما تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات. وقد أعتاد البعض ألا يفرقوا بين العلم والثقافة من جهة، وبين الثقافة والحضارة من جهة أخرى. وفي ذلك يذكرسميح عاطف الزين أن الثقافة هي المعرفة التي تؤخذ عن طريق الإخباروالتلقي والإستنباط، بينما العلم هو المعرفة التي تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة والإستنتاج[8].

وفي نفس السياق يرى العالم الألماني ويبرweber أن الثقافة هي الإنماء العقلي والأدبي، كما يرى العالم الأمريكي سوروكين sorokin أن الثقافة هي عملية إكتساب الصفات المحمودة، وبخاصة الأوصاف الفردية والإجتماعية، والعلوم وتطبيقاتها من إختصاص الثقافة. وعليه فإن النظريتين(نظرية ويبر-نظرية سوروكين)تؤكدان على القيم والمعاني والمعايير التي تتكون لدى الأفـــراد، إضـــافة الى الوسائل التي تجعل هذه المعاني مقبولة إجتماعيا[9].

إذاكان العلم لا يختص بأمة دون أخرى، معنى ذلك يمكن تبادله بين الشعوب والأمـــم دون قيد أو شرط ، فإننا نجد الدول تحرص على ثقافتها وعلى نشرها بين الأمم، بل وتمنع أبناءهـــا مـــن التأثربالثقافات الأخرى حفاظا على شخصيتها. فالعلم مهما كان نوعه والإختصاص فيه، ما هو إلا وسيلة للثقافة، وليس هو الثقافة، لكن وبدون شك أن العلم والمعرفة هما أساس الثقافة بكل ما توحي إليه الكلمة من شمولية[10].

وعليه فإن الثقافة المتواصلة تمهد للشعوب السبيل نحو التقدم والرقي، وتؤهلهم للتحضـــر، فأصل الحضارة هي الثقافة، وبين الثقافة والحضارة ارتباط وثيق. فالثقافة التي لا تفضي إلى الحضارة لا تعد ثقافة، والحضارة التي لا تغذيها ولا تنميها باستمرار الثقافة مصيرها الإنحلال والزوال. وهذا مالخصه ابن خلدون بقوله:"أن الحضارة هي غاية العمران، وهي تشمل خيرنتاج المجتمع في الفنـــون والعلوم والصنائع، كما تشمل حالة الرقي والتقدم في الأفراد والجماعات، فلا فرق عنده بين لفظـــة ثقافة ولفظة حضارة"[11]. فالحضارات تتواصل وتتفاعل وتتبادل العناصروالمؤثرات.

فعلا ان كلا من العلم والثقافة والحضارة معرفة، ولكن الثقافة والحضارة تطبعان الأمة بطابع خاص يميزها عن غيرها ويحدد شخصيتها وهويتها. وإذا كان العلم وظيفة العلماء فقط، فإن الثقافة والحضارة هي من مهام العلماء ورجال الدين والحكام أيضا، الذين يشرفون على المجتمع والعلاقات الدائرة فيه[12].

إن إنتشار العلم والثقافة بإيالة الجزائر لا يكمن في بروز فئة العلماء وشيوخ الزوايا فقط، بل يرجع بدرجة كبيرة أيضا إلى بعض البايات العثمانيين الذين شجعواالعلم و العلمـــاء ، والحركـــة

العلمية والثقافية بصفة عامة، كما وجهوا إهتماماتهم إلى بناء المؤسسات العلمية والثقافية، كالمساجد والمدارس والمكتبات[13].

وإذا كنا نركز على بعض مظاهر الحياة العلمية والثقافية في عهد الباي صالح بن مصـــطفى بقسنطينة، والباي محمد بن عثمان الكبير بمعسكر، فلأن حكمهما كان معاصرا لأبي راس في أوجه نشاطه*. علما بأن جهود حاكم واحد أو إثنان لا تؤثر في الوضع العام.

لقد ركزا الباي صالح بن مصطفى(بايلك الشرق) في سياسته الثقافية على تفعيل وتنشيط العملية التعليمية يقينا منه، أنها أساس نهضة المجتمع. فقد إعتنى بالمساجد من حيث الترميم والتشييد، كماإعتنى بالمدارس من حيث البناء والتنظيم، كالمدرسة الكتانية الملاصقة لجامع سيدي الكتاني الـــتي بناها عام 1775م. كما إستحدث في كل مدرسة قاعة للصلاة وأخرى للتدريس ومكتبة، وجعل للمدرسة التي تعمل على تخريج أصحاب الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة والقضاء والفتوى نظاما داخليا يضبط أوقات التدريس والعطل وأجور الموظفين وشروط الإقامة في المدرسة[14].

ولما كان الوقف يعتبرمن أهم مظاهر الحضارة الاسلامية، كانت الجزائر في العهد العثمـــاني من بين أهم المناطق الاسلامية التي أعتني فيها بالوقف، والذي استعمل في أغراض كثيرة، منها العناية بالطلبة الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل و خاصة في العناية بالمساجد والمـــدارس والزوايـــا. ولذلك نجد الباي صالح أمر بضبط أمور الاوقاف، ووضع سجلات يشرف عليها القضاة والمعنيون. مع العلم أنه خصص أوقافا كثيرة شملت مداخيلها مدرسي وطلبة المدرسة الكتانية[15].

أما في بايلك الغرب، فيعد الباي محمد الكبير من اشهرالبايات الذين شجعوا العمل الثقـــافي الجاد والنهوض به على أكمل وجه، فشجع العلماء بمساعدات وأجازهم بأموال، فنال أبوراس نفسه من هذا العطاء. كماإهتم بتشجيع حركة النسخ والتأليف، علما أن حركة النسخ قـــد شـــاعت في الجزائرقبل وأثناء العهد العثماني، فقد كان يقتني كتبا صماء، ويأمر بإختصار الكتب المطولة، ونسخ المخطوطات النادرة، إذ كان يجيز كل واحد منهم بسخاء حسب عمله وجهده[16].

لقد تبوأت بعض حواضر الجزائر مكانة هامة في ميدان الفكروالثقافة، وذلك لإنتشار التعليم وتأسيس الزوايا التي إحتضنت مهمة التعليم، بالإضافة إلى تفوق علمائها في شتى العلوم منها الفقـــه

المالكي، فكانت معسكر مثلا منبع علم التوحيد بإعتراف علماء من بينهم الشيخ أحمد المقري، الذي قال في "حاشيته على صغرى السنوسي" بأن سنده في علم التوحيد يتصل بعلماء الراشدية العـــارفين بهذا الشأن[17].

مما لاشك فيه، أن مساهمة أبي راس في الحركة الثقافية بالجزائر عامة، وبايلك الغرب خاصة، مساهمة كبيرة وفعالة، وإذا حاولنا معرفة مساهماته الثقافية، تستوقفنا الضرورة الى رسم شخصـــيته العلمية والأدبية. لقد كان أبوراس الناصري ذا علم فياض، وآداب عالية، وثقافة واسعة، كما كان رجل دين وأخلاق كريمة، محبا للعلم والعلماء. وهو الذي كان يؤمن بمبدأ أهمية العلم وتلقينـــه في الحياة الفكرية الثقافية، كون أن الدافع الحقيقي لها حسب رأيه هو الدين الاسلامي، ولذلك كانت أولى إسهاماته في الحركة الثقافية كمدرس، والتي بدأت منذ عودته من مازونة إلى مســـقط رأســـه معسكر، حيث أنهى دراسته بعد ثلاث سنوات قضاها في دراسة الفقه المالكي على مختصر خليـــل فأتقنه حفظا وفهما[18].

ولما كان الشيخ عبد القادر المشرفي أعلم أهل عصره، إتصل به أبو راس ولازمه مدة مـــن الزمن، ونظرا للدرجة التي بلغهاأبوراس، رشحه شيخه ليكون خليفة له في التدريس، ورغـــم أن تعيين المدرسين في الوظائف التعليمية لم يكن يخضع لسلطة الحكام الاتراك، إلا أن بعض الـــدايات والبايات كانوا على دراية كبيرة بما يجري داخل المدارس المشهورة التي كانت منتشـــرة في أرجـــاء الوطن، كمدارس معسكرفي عهد الباي محمد بن عثمان الكبير[19].

كان التعليم ولا يزال الأساس الحقيقي لكل ثقافة، ولأي تقدم في المجتمعات الانسانية، وهذا ماأدركه المصلحون الألمان إثرالنهضة الأدبية الدينية التي شهدتها أوربـــا خـــلال القـــرن الســـادس عشرالميلادي، حيث أكدواعلى أن سعادة الأمة تتوقف على تعليم كل فرد من أفرادها ليقوم بواجبه. نفس الإدراك كان لدى علماء الجزائرخلال الفترة العثمانية خاصة في عصرأبي راس الناصـــري، لأن شؤون المجتمع جزء لاينفصل عن العقيدة، وأن الدراسات المهتمة بتاريخ المجتمعات، قد أجمعت على أنه ما من مجتمع وجد على الارض، إلا كان له دين، وأنه ما من دين إلا كان له إهتمام بـــالمجتمع، وأن الدين أقدرمن أي عامل آخرعلى الحفاظ على تماسك المجتمـــع وعلـــى إحتـــرام الإلتزامـــات الإجتماعية المختلفة[20].

صحيح ان الجزائر لم تكن بهامراكز علمية مشهورة، شهرة جامع الأزهربالقاهرة، أو جامع الزيتونة بتونس، أوجامع القرويين بفاس، ولكن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي بل تفـــوق أحيانا الجامع الأموي بدمشق، والحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة لتنوع الدراسات فيها، وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ويثبت الشيخ المهدي البوعبدلي بقوله"الى ان مجرد الإطلاع على بعض الإجازات العلمية تدل على إزدهار بعض المعاهد بالجزائر، والتي كانت المـــواد التي تدرس فيها لاتقل أهمية عن المواد التي كانت تدرس بأشهر الجامعات الإسلامية[21].

كان التدريس يتم في المسجد والزاوية و المدرسة على شكل حلقات للطلبة حول شيخهم، وكانت حلقة الشيخ أبي راس الناصري من أكبرالحلقات في عصره، حتى إجتمع عنـــده في بعـــض السنين سبعمائة وثمانون طالبا. كما كان الطلبة يختارون المواد التي يدرسونها لتنتهي دراساتهم بتلقي الإجازة من الشيوخ التي تؤهلهم الى تدريس ما حفظوه من مختصرات وأبواب في الفقه وغيره[22].

كان أبو راس يرى أن شأن العلم أن يحفظ، فكان لا يصحب معـــه كتابـــا، ولا يقـــرأ في مجلسه، إلا إذا قرئ خفية منه، كما كان يورد درسه على التحقيق والتدقيق، فيبتـــدئ مـــن بـــاب الإعتكاف، ولا يقوم حتى يقف على باب الزكاة، دونماأن يقف له شيء، أو يشك مع كثرة بـــاب الحج وطوله وصعوبته[23].

لكن يبدو أن سر نجاحه في مهنة التدريس، هي الطريقة التي كان ينتهجها في دروسه، حيث كان يذكر أثناء الدرس حكايات ونوادر لتنشيط القلوب الفواتر، مع الملاحظة أن نفس الطريقة كان يستعملها في أسلوب كتاباته، حيث كان يذكربعض النوادروالإضافات تحـــت عنـــاوين مختلفـــة مثل:غريبة-عجيبة-أريبة-لطيفة-ضريفة-تنبيه-تنبيه وجيه، وهي ولا ريب طريقة أثمرت نتائجها في تخريج الكثير من فطاحل العلماء بالوطن الراشدي كالشيخ سيدي عبد القادر هزيل، والشيخ أبـــو حامد المشرفي، والشيخ عبد الله سقاط المشرفي، والشيخ محمد المهاجي، وهذا مـــا أكـــده الشـــيخ بلهاشمي بن بكار بقوله: "تخرج عنه كثير من فطاحل العلماء"[24].

لقد حظي أبوراس بمنزلة عظيمة لدى طلبته وكان تأثيره كبيرا فيهم، يلمس ذلك من الحب والإحترام والتقدير المتبادل بينهم، وما فاضت به أقلامهم في حقه دليل على ذلك، وفي هذا الصدد

يذكر محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن مشايخه الذين أخذ عنهم العلم، فيقول:"ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي محمد أبوراس المعسكري البلد-رحمه الله- كنت أتردد عليه كثيرا، وأستفيد منه إستفادة عظيمة لتمام حفظه وإتقانه لكل فن، حافظ لمذاهب الأئمة الأربعة، جواب كل ماسئل عنه بين شفتيه، وغالب من أخذ العلم من أهل ناحيته أخذ عنه"[25].

وفي هذا الإطار نستنتج النظرة التوافقية بين أراء أبي راس الناصري وإبن خلدون، فلقد إعتمد أبو راس كثيرا على أراء ابن خلدون خاصة المقدمة، لأنها تعد أساس علم الإجتماع، حيث إعتمد على القصص والأخبار كأبعاد إجتماعية إستخلص منها جملة من الحقائق التاريخية الواقعية كالتحرر العلمي وحرية الدين . وهي النظرة التي كان ابن خلدون قد عبرمن خلالها عن نظرية القرآن الاجتماعية، ومفادهاأن الإنسان إذا فسد في أخلاقه ودينه، فقد فسدت أنسانيته، وصار مسخا على الحقيقة[26].

هذا وتجدر الإشارة، إلى أن أهم العلوم التي كانت تدرس في عهد أبي راس الناصري بالمدرسة المحمدية وبمدرسة القيطنة، كتب الفقه مثل حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي، وهما الحاشيتان اللتان إعتمدهما أبو راس في تدريسهما للطلبة، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي الذي كان آية عصره. إلى جانب كتب النحو، واللغة، والأصول، فضلا عن كتب التصوف، والمنطق، وعلم البيان، إلى غير ذلك من العلوم النقلية والعقلية الأخرى.

2- مساهمته في الكتابة التاريخية

ومن الإسهامات الأخرى لأبي راس الناصري في الحركة الثقافية، هي تآليفه الكثيرة وكتاباته المتنوعة، فقد ذكرعن نفسه أن مألفه بلغ ثلاث وستين كتابا، بينما نسب إليه أحد المستشرقين مائة وسبعة وثلاثين مصنفا في مختلف العلوم، بين كبيروصغير، وبين شرح وتأليف[27]، منها ماحقق ونشرومنها ماهو في طريق التحقيق كمخطوط"زهرالشماريخ في علم التاريخ" الذي نحن بصدد تحقيقه، ومنها مايعتبر في حكم المفقود، وأسوته في ذلك الإمام جلال الدين السيوطي حيث يقول: "إنما عددت تآليفي وجملة تصانيفي إقتداء بالإمام السيوطي، وما أعلم أحد أكثر التآليف بعده غيري والكمال لله[28].

هذا ومن بين الموضوعات التي حظيت بالتأليف في كتاباته وشغلت باله، هي الإحتلال الإسباني لمدينة وهران ، وأحوال المسلمين في العالم العربي والإسلامي. فقد خص فتح وهران بقصيدة سينية طويلة (118 بيتا) عرفت" بنفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله محمّد بن عثمان الكبير"، وقد أتم شرحها في كتاب سماه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" الذي يعتبر تأريخا للحدث أضيف إلى الكتابات التاريخية وإلى الرصيد الثقافي[29].

كما كتب أبو راس الناصري في الأحداث السياسية والإجتماعية التي عرفتها الجزائر عامة، ومنطقة بايلك الغرب خاصة، كثورة درقاوة التي خصها بتأليف سماه" درء الشقاوة في حروب درقاوة"، والتي تحدث عنها في سيرته واصفا إياها بالفتنة . كماكتب في الأمراض كالجدري والطاعون، فقد ألف كتابا سماه" ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" جمع فيه ما قيل عن الطاعون وأضراره ولعله إستوحاه من طاعون عام 1202هـ/1788م الذي أصاب منطقة معسكر، وكتابا في الجدري سماه"الكوكب الدري في الكلام على الجدري" تناول فيه أبو راس مسألة هل الجدري عيب يرد به الرقيق[30].

إن طريقة أبي راس في كتابة التاريخ شبيهة بطريقة علماء القرن السابع عشرالميلادي كإبن ميمون صاحب كتاب" التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، وهي طريقة عرفت رواجا في المغرب العربي، حيث كانت تجمع بين الأدب والتاريخ، إذ يبدأ المؤرخ بكتابة قصيدة موضوعاتها تاريخية ثم ينتقل إلى شرح هذه الموضوعات شرحا تاريخيا.

أما مفهومه للتاريخ فلا يخرج عن نطاق المفهوم التقليدي الذي يربط علم التاريخ بالحكمة والإعتبار، فالغاية من التاريخ، تهذيب الأخلاق، وإبداء النصيحة. ولعله يربط ويجمع مهمة المؤرخ بالإخباري والنسابة، حيث يقول: "أن أخبارالأوائل ومعرفة أجناس الناس والقبائل من أهم ما يعتنى به ويدخر"[31].

تصدرأبوراس الناصري قائمة المدافعين عن التاريخ في عصره، ورد على من أعتبره" علما لا ينفع وجهالة لاتضر" بأدلة نقلية وعقلية، مستدلا بالآيات القرآنية التي تدعو إلى الإعتبار من تجارب الأمم، والأخذ من دروس الماضي.

أحب أبو راس الكتابة في التاريخ، رغم أن دور التعليم في عصره لم تكن تلقنه لطلبتها، يقول في هذا الصدد: "وأين لي بذلك وبضاعتي في هذا العلم نزر مترور". كما يذكر في موضع آخر رابطا التاريخ بالنسب قوله:"وأن النسب والتاريخ ضعفا في هذا الزمان وأندرسا، فلا يكاد يتفق فيه إثنان حتى يقع إختلافا كثيرا في الأمة الواحدة لأختلاط الأنساب، وأختلاف المذاهب، وتباين الدعاوي"[32].

لقد أعطى أبو راس الحقوق الكاملة للكتابة والتأليف، وأنصف الحوادث التاريخية الاسلامية العربية عامة والمحلية خاصة، لذا يمكن إعتباره من المؤرخين الجزائريين الذين رفعوا راية الدفاع عن قضيتهم، والمتمثلة في تحرير البلاد من الإحتلال الإسباني لينعم بالأمن والإسقرار. كما يمكن إدراجه في خانة الكتاب الوطنيين (اصحاب المدرسة التاريخية الوطنية) لما تتمتع به كتاباته من قيمة تاريخية كبيرة في تاريخ المغرب الأوسط[33].

ووفق هذه المعطيات نجد أن أباراس يشترك كثيرا مع رفاعه رافع الطهطاوي، ولعل أهم أوجه الشبه التي تجمع الشخصيتين الناصري والطهطاوي، هي ظاهرة حب الوطن والحنين إليه، فنجد أباراس بعد سماعه بخبر حصار المسلمين للإسبان بوهران وهو بجزيرة جربة بتونس قافلا من رحلته الثانية للمشرق العربي، يعجل العودة ليشارك أخوانه في الحرب من أجل تحرير ثغر وهران، كما نجد الطهطاوي يحن لوطنه مصر وشوقه لأخوانه وهو بفرنسا، وكأني بلسان حاله يقول، كما قال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودرت هالكا

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرته عهود الصبا فيه فحنوا لذلكا[34]

كما ساهم ابو راس بآراءه وخطاباته حينما تقلد وظائف الفتوى، والقضاء، والخطابة، بعد فتح وهران عام 1206هـ/1792م قبل أن يعزل منها عام 1211هـ/1797م[35].

غير أن إسهامات أبي راس الناصري كادت تكون أكثر وأوفر لو لم يصطدم في حياته بأوضاع سياسية وإجتماعية خاصة(الفتن والإضطرابات-اليتم والفقر) جعلته يعيش فترات من أشد الفترات اضطرابا، كان لها تأثير عميق في حياته النفسية والعلمية والثقافية[36].

خاتمة:

ومهما يكن، فإن مساهمة أبي راس الناصري مساهمة كبيرة وجليلة للبلاد وللعلم والثقافة الجزائرية في عصره، ورغم أن الباحثين والمؤرخين يصفون الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بالجزائر بأضعف الفترات العلمية والثقافية التي عاشتها الجزائر، إلا أن صاحب كتاب دليل الحيران وأنيس السهران يعتبر أبو راس" شيخ أهل غريس على الإطلاق ومجدد القرن الثالث عشرالهجري بالإتفاق"[37].

وإذا كانت كتابات أبا راس ينقصها الترتيب في المعلومات، والتداخل في الروايات والتكرار، والإستطراد الممل احيانا، إلا أنه جدير بنا ان نسجل إلتزامه بالأمانة العلمية، وأهتمامه بآراء العلماء والمؤرخين، وإن كان يبدي مخالفته لهم في العديد من المسائل بكل احترام ووقار. ولنا في الأخير ان نشير الى كثرة استشهاداته بالأقوال والامثال والابيات الشعرية وخاصة الايات القرآنية، وهذا ما يزيد في قيمة كتاباته العلمية وفي شخصيته الدينية والوطنية.

الهوامش:

1- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، ط1، الجزائر، 1972، ص:46.

2- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1983، ص:5.

3- أبوراس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق:محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص:25.

4- نفسه، ص:41

5- نفسه، ص: 117

6- نفسه، ص:24

7- مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق:رابح بونار، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1974، ص:80.

8- سميح عاطف الزين، الاسلام وثقافة الانسان، دارالكتاب اللبناني، ط7، بيروت، لبنان، 1981، ص:282.

9- نفسه، ص:283.

10- محمد الطمار، المرجع السابق، ص:7.

11- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دارإحياء التراث العربي، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت، لبنان، ص:369.

12- عزالدين الخطيب التميمي، نظرات في الثقافة الإسلامية، دارالشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، 1988، ص:12

13- صالح فركوس، الباي محمد الكبيروبعث الحركة الثقافية بباياك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، تصدرعن وزارة الثقافة، ع71، الجزائر، 1986، ص:17.

*- حكم صالح باي بايلك الشرق مابين سنوات1771م/1792م، عرفت فترة حكمه إزدهارا إقتصاديا وإجتماعيا، مما أدى الى إزدياد نفوذه وولاء الشعب له. كل ذلك أدى الى غيرة الباشا محمد عثمان الذي عينه ، وخوفا على منصبه خطط لقتله وتم له ذلك سنة 1792م. أما الباي محمد بن عثمان الكبير فقد حكم بايلك الغرب مابين سنوات1779/1797م، ساهم في صناعة التاريخ السياسي والحضاري والإجتماعي للجزائركونه تميز عن بقية البايات الآخرين بمشروعه الحضاري والثقافي. للمزيد من المعلومات ينظر:الشيخ مبارك الميلي، تاريخ حاضرة قسنطينة، وvayssettes:تاريخ بايات قسنطينة، ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير"باي الغرب الجزائري" الى الجنوب الصحراوي.

14- أحمد توفيق المدني، محمد باشا عثمان-1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص:135.

15- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائرالثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص:225-226.

16- ابن سحنون الراشدي، الثغرالجماني في ابتسام الثغرالوهراني، تحقيق وتقديم:المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم العالي، مطبعة البعث بقسنطينة، الجزائر، 1973، ص:146-147.

17- المهدي البوعبدلي وناصر الدين سعيدوني، الجزائرفي التاريخ العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 170-171.

18- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص:570.

19- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:331.

20- محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدارالتونسية للنشر، مطبعة دارالعلم، تونس، ص:07.

21- ناصرالدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص:127.

22- لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1518-1830، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2006، ص:75.

23- أبوراس الناصري المصدرالسابق، ص:22.

24- بلهاشمي بن بكار، حاشية رياض النزهة من كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، ط1، الجزائر، 1961، ص:13.

25- ابن سحنون الراشدي، المصدرالسابق، ص:66.

26- عبد الرحمان ابن خلدون، المصدرالسابق، ص:666.

27- إغناطيوس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله الى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الثاني، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ص:768.

28- أبوراس الناصري، المصدرالسابق، ص:22.

29- محمد الطيبي، العصروالعصارة، ملتقى أبي راس الناصري المعسكري الثاني، معسكر، 27-28 أكتوبر1988، ص:7.

30- أبوراس الناصري، الكوكب الدري في الكلام على الجدري، تحقيق: بوكعبر بلقرد، مكتبة الرشاد الطباعة والنشروالتوزيع، الجزائر، 2004، ص: 23.

31- مخطوط زهرالشماريخ في علم التاريخ، (ملكية خاصة) ص:03.

32- نفس المصدر، ص:04.

33- بلبروات بن عتو، فتح وهران والمرسى الكبيرفي الكتابات التاريخية لعام 1792، مجلة الحضارة الاسلامية، تصدرها كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعةوهران، ع12، دارالغرب للنشروالتوزيع، الجزائر، 2005، ص: 271-272.

34- الأبيات الشعرية من ديوان إبن الرومي من قصيدة عنوانها "لي وطن"-البحرالطويل-للمزيد من المعرفة ينظر:أحمد حسن بسج ، ديوان إبن الرومي، م3، منشورات محمد علي بيضون، ط3، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص:14.

35- أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير"باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم الجزائري، نشرعالم الكتب، مصر، 1969، ص:14.

36- محمد بشيربويجرة، التسامي والعبقرية عند أبي راس"قراءة في فتح الإله وفق المنهج النفسي، مجلة قراءات، يصدرها قسم اللغة العربية بجامعة معسكر، ع1، 2008، ص:102-103.

37- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1978، ص:71.